مجلة (لغة – كلام) تصدر عن مخبر اللغة والتواصل- جامعة غليزان / الجزائر
ISSN : 2437-0746 / EISSN: 2600-6308
رقم الإيداع: 2015 - 3412
مصنفة ج : قرار 1432 بتاريخ 2019/08/13
http://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/176
المجلد 07/ العدد: 01 (2021) - ص 264- 274

شعريّةُ الاغترابِ اللُّغويِّ في روايةِ "وطن من زُجاج" لـ "ياسمينة صالح"

The Poetics of Linguistic Alienation in the Novel « A Homeland of Glass » by Yasmina Salah

وليد بن خليفة [1] محمد الهادي بوطارن [2]
[1] walidrr80@yahoo.fr [2]boutarene.moh@gmail.com
المدرسة العليا للأساتذة _ بوزريعة/ الجزائر

تاريخ الاستلام: 2020/06/18 تاريخ القبول: 2020/08/07 تاريخ النشر: 2021/01/15

ملخص البحث

تهدفُ هذه الدّراسة إلى الكشفِ عن تجلّيات الاغترابِ اللُّغويّ في رواية "وطن من زجاج" لياسمينة صالح، وأثر هذه التّجلّيات على الرّواية. لقد أفضت بنا الدّراسة إلى تحديدِ ثلاثةِ تجلّياتٍ مختلفةٍ للاغترابِ اللُّغويّ في الرّواية هي: الاشتغال على المفارقة بين الواقعِ المعاشِ والواقعِ المأمول، التّمرّد على الرّتابة اللُّغويّة من خلال توظيفِ مظاهر العنفِ في الواقع في لغة الكتابة الرّوائيّة، استعمال المونولوج قصد إبراز اغتراب الشّخصيّة الرّوائيّة عن طريق الكشفِ عن مكنوناتها النّفسيّة. تُمثّل تجلّيات الاغتراب اللّغوي منبع شعريّة الرّواية إذ تقوم بدور محوريّ في عمليّة تشكيل بنيتها الدّلالية والجماليّة.

الكلمات المفتاحية: الاغتراب اللّغويّ، رواية، وطن من زجاج، ياسمينة صالح، الاغتراب.

ABSTRACT:

This study aims to reveal the manifestations of Linguistic Alienation in Yasmina Salah's novel "A Homeland of Glass" and the impact of these manifestations on the novel. The study leads us to identify three manifestations of Linguistic Alienation in the novel: The use of Paradox, defying the use of familiar language, uncovering the characters' alienation through the monologue. These manifestations of Linguistic Alienation are the source of the novel's poetics because they are playing a central role in the process of shaping its semantic and aesthetic structure.

Keywords: Linguistic Alienation, Novel, A Homeland of Glass, Yasmina Salah, alienation.

[1] المؤلف المرسل: وليد بن خليفة

مقدّمة:

لقد كانت الثّقافة الغربيّة سبّاقة إلى استعمال مصطلح الاغتراب (Alienation) ضمن حقول معرفيّة متباينة؛ إذ تسبّب التّطوُّر الذي عرفه العالم الغربيّ خاصّة مع بزوغ فجر النّهضة الأوربيّة في تطوّر مختلف اللّغات الأجنبيّة، فاكتسبت ألفاظها دلالاتٍ جديدة من أجل أن تُواكب تلك اللّغات التّطوّر المتسارع للمجتمع، ما جعل الحدود اللّغوية للفظة الاغتراب (Alienation) في المعجم اللّغوي الغربيّ تتطوّر بشكل لافتٍ لتشمل دلالاتها مجالاتٍ مختلفة في المجتمع المعاصر، متحوّلةً تدريجيّا من مجرّد لفظة لغويّة تُستعمل ضمن سياقاتٍ محدودة إلى إحدى أهمّ المصطلحات المعاصرة ذات الارتباط الوثيق بمجالاتٍ معرفيّة متباينة أهمّها: الفلسفة وعلم النّفس وعلم الاجتماع والاقتصاد والأدب. إلّا أنّ المنعرج التّاريخيَّ لمصطلح الاغتراب في الثّقافة الغربيّة ظهر مع دراسات الفيلسوف الألماني "جورج هيجل Georg Hegel" الذي يُعدُّ «أوّل مفكّرٍ يستخدم في كلّ مؤلّفاته تقريبًا مصطلح الاغتراب على نحو منهجيّ ومفصّل، بل لقد استعمله في عنوان لصفحات تزيد عن المائة في كتابه الأوّل "ظاهريات الرُّوح" الذي نشره عام 1807م»[1].

إنّ مفهوم الاغتراب عند "جورج هيجل Georg Hegel" يتلخّص في حالة اللّاقدرة أو العجز التي يُعانيها الإنسان عندما يفقد سيطرته على مخلوقاته ومُنتجاته وممتلكاته، فتُوظَّف لصالح غيره بدل أن يستعملها لمصلحته الخاصّة، وبهذا يفقد الفردُ القدرةَ على تقرير مصيره[2]. انطلاقًا من مفهوم الاغتراب عند "جورج هيجل Georg Hegel"، حمل مصطلح الاغتراب في الدّراسات الحديثة والمعاصرة معاني العجز واللّاقدرة على عقد علاقاتٍ وديّة مع الذّات والمحيط، وأصبح الاغتراب أهمّ مصطلح معاصر مُرتبط بالمجتمع المعاصر، ما جعل الاغتراب يتحوّل إلى سمة مميّزة للإنسان المعاصر الذي ما ينفك يشعر بالانفصال عن ذاته وواقعه[3]. من هنا، رأى "كارل ماركس Karl Marx" أنّ الاغتراب حالة ناتجةٌ عن الآثار المدمّرة التي تُخلّفها الرّأسماليّة على الفرد العامل في المجتمع الرّأسماليّ؛ إذ على الرّغم من شعور الإنسان بعدم الرّضا عن وضعيّته اتجاه السّلطة والمؤسّسات، يجد نفسه مضطرًا للعمل من أجل كسب لقمة عيشه، وهذه المفارقة تُولّد لدى الإنسان مشاعر الاغتراب المتمثّلة بشكل عامٍ في الشُّعور الدّائم بالعجز واللّاقدرة على التّأقلم مع الواقع[4].

أمّا في الثّقافة العربيّة، فلم تخرج لفظة الاغتراب من فلك الدّلالة على الغربة بمعنى الابتعاد عن الوطن إلّا بعد أن نهل الباحثون العرب من الدّراسات الغربيّة المرتبطة بالاغتراب كمصطلح معاصر ليدركُوا أنَّ غربة الإنسان العربيّ المعاصر تتجاوز قضيّة الابتعاد عن الأهل والخلّان: فالإنسان العربيُّ أصبح يشعر بالاغتراب عن ذاته ومحيطه في عقر داره. لقد أدّت المشاكلُ السّياسيّة وتداعياتها الاجتماعيّة والاقتصاديّة في المجتمع العربيّ إلى حرمان الشّعب من المشاركة في تسيير مؤسَّساته، و سلبه حقه في تقرير مصيره وحماية حقوقه وكرامته[5]. وتحت وطأة هذا الواقع العربيّ

المأزوم، عجز الإنسان العربيّ عن التّأقلم مع واقع يرفضه، لكنّه في الوقتِ نفسِهِ غير قادر على تغييره، ما أدّى به إلى الانفصال عن واقعه. إنّ هذا الاكتساح الواسع لظاهرة الاغتراب للواقع اليوميّ للإنسان العربيّ، شمل بشكل لافتٍ عمليّة الإبداع الرّوائيّ باعتبارها نشاطًا إنسانيًا، ذلك أنّ الرّواية المعاصرة أصبحت فضاءً للأسئلة التي تُعبّر عن عجز الإنسان عن التّواصل مع محيطه. من هنا، اكتسبت الرّواية المعاصرة كينونة اغترابيّة من خلال شحنها بحمولات اغترابيّة مقنّعة بما يتناسب مع طبيعة الإبداع الفنّي الرّوائيّ؛ ذلك أنّ التّعبير عن الاغتراب في العمل الرّوائيّ لا يتمّ إلّا في إطار احترام القوانين العامّة للإبداع لكي يحافظ هذا العمل على روحه الفنّية باعتباره عملاً إبداعيًا فنّيًّا بالدّرجة الأولى. من أجل ذلك، يرتكزُ المبدعُ على الاشتغال على المكوّنـات الأساسيّة لبنيةِ العمـل الرّوائيّ قصد إعطاء عمله الإبـداعيّ هويّة اغترابيّة. من هذا المنظور، ينتجُ ما نسميه بالاغتراب اللّغويّ عندما يرتكز الرّوائيّ المعاصر في إبراز اغترابه عن ذاته ومحيطه على عمليّة التّشكيل اللُّغويّ باعتبار اللّغة مكوّنا أساسيًا لبنية العمل الرّوائيّ. من هذا المنطلق، سنقوم في بحثنا بالكشف عن تجلّيات الاغتراب اللّغويّ، وأثرها على رواية "وطن من زجاج" للكاتبة الجزائريّة " ياسمينة صالح"، ذلك أنّ تجلّيات الاغتراب اللّغويّ تقوم بدور أساسيّ في تشكيل بنية الرّواية؛ إذ تُبرز الكاتبة في روايتها حالة الانكسار والخيبة التي يعاني منها الإنسان المعاصر من خلال إبراز اغترابه عن طريق عمليّة التّشكيل اللّغوي. من هنا، سنُحاول من خلال دراستنا الإجابة على التّساؤلات الآتية: ما مفهوم الاغتراب اللّغويّ في الرّواية الجزائريّة من منظور معاصر؟ ما تجلّيات الاغتراب اللّغويّ في رواية "وطن من زجاج" لِياسمينة صالح؟ وما أثر هذه التّجلّيات على الرّواية؟

1. مفهوم الاغتراب اللّغويّ في الرّواية الجزائريّة:

لقد حرص الاستعمار الفرنسيُّ على طمس ملامـح الهويّة الجزائريّة، مركّزا عـلى قضيّة اللّغــة، باعتبارها إحدى مقوّمات الهوّيّة الوطنيّة، من خلال حرمان أجيال المستقبل من أبناء الجزائر الذين يُتاح لهم التّعليم _على قلّتهم_ من تعلّم لغتهم الأمّ، لينشأ بذلك جيلٌ من المثقّفين ذوي الرّوح الجزائريّة الخالصة، لكنّ تعبيرهم فرنسيٌّ بحت، ما جعل كثيرا من الكتّاب الجزائريين يُعانون من أزمة هويّة بسبب عجزهم عن التّعبير بلغتهم الأمّ، بَيْدَ أنّ الشُّعـور العميق بهـذه الأزمـة، لـم يمنـع أولئك الكتّاب من جعل الكتابــة الرّوائيّة سبيـلاً لمقاومـة الاستعمـار. من هنـا، كانت الرّواية الجزائريّة المكتوبة باللّغة الفرنسيّة صوتًا للمقهورين في المجتمع الجزائري خلال فترة الاستعمار الفرنسيّ، وتأكيدًا على الانتماء الرّاسخ لكتّابها إلى الجزائر شعبًا وثقافةً وتاريخًا. إنّ هذا الحسّ الوطنيّ أصبح سمة بارزة في الرّواية الجزائريّة المكتوبة باللّغة الفرنسيّة؛ فعلى سبيل المثال نلاحظ أنّ استعمال "محمد ديب" للّغة الفرنسيّة كوسيلة للتّعبير في ثلاثيّته ("الدّار الكبيرة" 1952م،"الحريق" 1954م، "النّول" 1957م) لم يمنعه من تقديم صورة مقرّبة عن الحالة البائسة التي يعيشها المواطن الجزائريّ في أرضه المحتلة؛ فشخصيّة "عمر" في الثُّلاثيّة تُمثّل الشّعب الجزائريَّ بتحدّياته، وصراعاته اليوميّة

خلال فترة الاستعمار. والواقعُ أنّ تجارب روائيّة لكتّاب جزائريين آخرين مثل: "مولود فرعون"، "مولـــود معمري"، "كاتب ياسين"، تنبضُ هي الأخرى بقلـب جزائريّ خالصٍ، فكانت الملامح المميّزة للشّخصيّة الجزائريّة محرّكًا أساسيًّا للحركة الإبداعيّة الرّوائيّة باللّغة الفرنسيّة، ما جعل الرّواية المكتوبة باللّغة الفرنسيّة، تتحوّل إلى مـرآة للمجتمع الجـزائريّ، تعكسُ مشاكله وهمومه وقضاياه خلال فترة الاستعمار الفرنسيّ. وبهذا نتجت المفارقةُ المتمثلةُ في ظهور رواية باللّغة الفرنسيّة، لكنّها في الوقت نفسه تُعنى بهموم المجتمع الجزائريّ بخصوصيّاته الاجتماعيّة والثّقافيّة، وفي ضوء هذه المفارقة، أصبح الاغترابُ اللّغويُّ في فترة ما قبل استقلال الجزائر يرتبط بمعاني الغربة والنّفي، معبّرًا عن تلك الحالة التي يعيشها الكاتب الجزائريُّ الذي على الرّغم من جزائريّته، يجد نفسه غير قادر على التّواصل مع أبناء وطنه باللّغة التي يفهمونها. من هنا، أضحى الاغتراب اللغويُّ في الرّواية الجزائريّة المكتوبة باللّغة الفرنسيّة في فترة ما قبل استقلال الجزائر يـــدلُّ على غربةِ الكُتّاب الجزائريين ذوي التّعبير الفرنسيّ عن لـــغتهم الأمّ: فكان هؤلاء الكتّاب لا يتوانون في إبداء ألمهم بسبب غربتهم داخل لغةٍ أُجبروا على الكتابة بهـــا، الأمر الذي تحوّل إلى أزمةٍ حقيقيّة ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بتجربتهم الأدبيّة. والواقع أنّ ملامح هذه الأزمة تجلّت على نحو خاصّ وفريد في التّجربة الأدبيّة لِـ"مالك حدّاد" الذي عبّر عن الاغتراب اللّغويّ الذي يُعاني منه بقوله: «اللّغة الفرنسيّة منفاي»[6]؛ فكانت شخصيّاته الرّوائيّة مسكونة بهاجس الانتماء، تُحاصـــرها أسئلة الهويّة، وتُطـاردها أشباح الآخـر المستعمِر.

ولئن ارتبط مفهوم الاغتراب اللّغويّ في الرّواية الجزائريّة المكتوبة بالفرنسيّة بمعاني النّفي والغربة في فترة ما قبل الاستقلال، فإنّنا في فترة ما بعد الاستقلال نقفُ على اغتراب لغويّ بمعنى جديدٍ معاصر بعيد عن الغربة اللّغويّة؛ ذلك أنّ مشاعر الاغتراب لدى الكاتب الجزائريّ المعاصر تجاوزت أزمة الهويّة أو مشكلة اللّغة، ليتحوّل الاغتراب إلى شعور ملازمٍ حتى للكتّاب الذين يتّخذون من لغتهم الأمّ وسيلة للتّعبير. انطلاقًا من ذلك،صار الاغترابُ اللّغويّ من منظور معاصر أحد أشكال ظاهرة الاغتراب بمعناها المعاصر؛ أي لا علاقة للمفهوم بمعاني الغربة والنّفي، بل يُمثّل الاغتراب اللّغويّ بشكل ما إحدى تجلّيات الشّعور بالعجز واللّاقدرة على التّواصل مع الذّات والمحيط. من هذا المنظور، لا يمُكن تحديد تجلّيات الاغتراب اللّغوي إلاّ من خلال الأبعاد السّتة الأساسيّة للاغتراب المعاصر المتمثلة في: «العجز، العبثيّة، غياب المعياريّة، الاختلاف الثّقافيّ، العزلة الاجتماعيّة، الغربة عن الذّات»[7].

لقد اجتاحت هذه الأبعاد السّتة العمل الرّوائيّ الجزائريّ في فترة ما بعد الاستقلال، نظرًا لشعور الكاتب الجزائريّ المعاصر بالعجز أمام واقعه المأزوم واللّاقدرة على تغييره؛ فتحوّلت الرّوايـــة الجزائريّة المعاصرة فضاءً للأسئلة التي تُبرز القـلقَ الدّائم للإنسان الجـزائريّ المعاصـر، وعجزه عن التّأقلم مع واقعه. والحقُّ أنّ تفاقم المشاكل السّياسيّة في جزائر ما بعد الاستقلال، وما تبعَه من أزماتٍ اجتماعيّة واقتصاديّة، ساهم بشكل كبير في تعميق مشاعر الاغتراب لدى الكاتب الجزائريّ

المعاصر الـذي أصبح تدريجيّا يشعر بالانفصال التّام عـن واقعـه، الأمر الذي كان له انعكاس مباشر على اللّغة التي يستعملها في عمليّة الإبداع؛ ذلك أنّ اللّغة من منظور معاصر مرآة للعالم، «فاللّغة ليست وسيطًا بين العالم والإنسان، ولكنّها ظهور العالم، وانكشافه بعد أن كان مُستَتِرًا، إنّ اللّغة هي التّجلّي الوجودي للعالم».[8] من هنا، عمد "عمارة لخوص" في روايته " البق والقرصان" الصّادرة سنة 1999م إلى إبراز اغترابه عن الواقع الجزائريّ من خلال المعماريّة اللّغوية لنصّه الرّوائيّ؛ إذ عبَّر عن تمرّده عن الواقع الجزائريّ التّسعينيّ من خلال تمرّده على المعايير اللّغويّة التّقليديّة في روايته من خلال توظيفه للكلمات الدّارجة والعبارات المقتبسة من الفلكلور أو الأغاني الشّعبيّة أو حتى ما يُعرف بالأغنية الرّايوية التي كانت ذائعة الصّيت في الأوساط الشّبابيّة خلال مرحلة التّسعينات. لقد عكستْ الرّواية الأزمة الثّقافيّة التي تخبَّط فيها الإنسان الجزائريّ خلال مرحلة التّسعينات، إذ قدّمت صورًا عن اغتراب الإنسان عن ذاته، ساعيةً إلى التّمرّد على النّمط السّائد في المجتمع الجـــزائريّ خـلال التّسعينات، وهذا التّمرّد اكتسح لغة "عمارة لخوص"، فكانت الرّواية بمثابة ثورة لغويّةٍ على الواقع الجزائريّ التّسعينيّ الذي يرفضه الكاتب رفضًا مطلقًا[9].

ولئن كان "عمارة لخوص" قد وظّف استعمالاتٍ لغويّة شعبيّة أو محظورة من أجل التّعبير عن اغترابه، فإنّ "ياسمينة صالح" في روايتها "وطن من زجاج" لا تُعبّر عن اغترابها من خلال توظيف هذه الاستعمالات، بل تُحوّل اللّغة العربيّة الفصحى المألوفة في الكتابة الرّوائيّة إلى لغة اغترابيّة مُثقلة بمشاعر العجز واللّاقدرة على التّأقلم مع الواقع. من هنا، يتحوّل الاغتراب اللّغويّ إلى مكوّن محوريّ للهويّة الاغترابيّة لرواية "وطن من زجاج" لياسمينة صالح لذلك سيُمثّل الاغتراب اللّغويُّ في بحثنا نقطة الالتقاء المحوريّة بين الواقع والنّص؛ إذ إنَّ «تأويل عمل أدبيّ أو غير أدبيّ لذاته وفي ذاته، دون التّخلّي عنه لحظة واحدة، ودون إسقاطه خارج ذاته لأمرٌ يكاد يكون مستحيلاً»[10]، لهذا سننطلق في دراستنا من النّص الرّوائيّ منفتحين على الواقع على اعتبار أنّ الاغتراب اللّغويّ يُمثّل إحدى تجلّيات الواقع في الرّواية.

2. تجلّياتُ الاغتراب اللّغويّ في رواية "وطن من زجاج" لياسمينة صالح:

1.2. المفارقة في خطاب العنوان:

نال العنوانُ أهمّية بالغةً ضمن المشروع النّقديّ للنّاقد الفرنسيّ "جيرار جنيتGérard Genette" الذي نقل اهتمام الشّعريّة المعاصرة من النّص إلى النّص الموازي الذي يُمثّل «مجموع المصاحبات التي تجعل من نصّ ما كتابًا، وهي التي تُصيّره كذلك في عيون القرّاء أو الجمهور بشكل عام»[11]، من هنا، يرى "جيرار جنيت Gérard Genette" أنَّ النّص الأدبيَّ يكتسب كينونته الدّلاليّة والجماليّة ليس من خلال المتن فقط أي النّصّ، بل من خلال كلّ ما يُحيط بالنّصّ من مصاحباتٍ مثل: العنوان، الغلاف، اسم المؤلف، دار النّشر، الإشهار... وغير ذلك من مصاحبات. وفي ضوء هذا الاهتمام بالمصاحبات

النّصيّة، لم يعد العنوان من منظور الدّراسات المعاصرة مجرّد لافتة تعريفيّة بالنّصّ الرّوائيّ، بل أصبح رسالة مشفَّرة تختزل دلالات العمل الرّوائيّ، وتُغري القارئ باستكشاف دهاليزه، ولا يُمكن استنطاق النّصّ المعاصر إلّا من خلال فكّ شفرة العنوان الذي يتحوّل إلى «مفتاح تقنيّ يجسّ به السّيميولوجيّ نبض النّصّ، وتجاعيده وترسّباته البنيويّة، وتضاريسه التّركيبيّة، على المستويين: الدّلاليّ والرّمزيّ»[12].

إنّ أوّل كلمة تُطالعنا في خطاب العنوان هي كلمة "وطن"، وهي كلمة نكرة تُوحي بنوع من الانفصال بين المتكلّم والوطن الذي يتحدّث عنه؛ فاستعمال المفردة النّكرة ضمن هذا السّياق يُعدّ خيارًا استراتيجيّا للكاتبة من أجل التّعبير عن حالة اللاءنتماء التي تشعر بها اتجاه هذا الوطن الذي يُشبه بيتًا هشّا من زجاجٍ قد يتحوّل في أيّة لحظة إلى ركام. من هنا، تتشابكُ دلالة كلمة "الوطن" مع دلالة كلمة "الزّجاج" منتجة بذلك ثنائيّة (اللّاءنتماء/الهشاشة)؛ فلئن كان الوطن في العادة هو مأوى الإنسان الذي يأوي حزنه، وتكبر فيه أحلامه، فإنّ الوطن الذي تتحدّث عنه الكاتبة لا يُمثّل بالنّسبة لمواطنيه مأوى آمنا، إنّه وطن لم يعد بمقدوره توفير الحماية لأبنائه لأنّه هشٌّ جدًّا مثل الزّجاج. من هنا، تشتغل البنية الدّلالية للعنوان على المفارقة (Paradox) الموجودة بين الواقع المعاش والواقع المأمول على اعتبار المفارقة تمثّل «فكرة تُفيد الدّهشة لأنّها تتناقض مع ما هو اعتياديّ ومألوف، إنّها فكرة صادمة للمعنى المعروف المتداول»[13]. فإنْ كانت ثنائيّة (وطن/زجاج) في خطاب العنوان تدلّ على (اللّاءنتماء/الهشاشة)، فإنّ الواقع المأمول لا يُنظر فيه للوطن إلّا من خلال ثنائيّة (الانتماء/الصلابة) ذلك أنّ المواطن يتوقّع أن يكون الوطن مدعاة للشعور بالانتماء من خلال تمكّن هذا المواطن من تحقيق طموحاته وأهدافه في وطنه، كما أنّه يتوقّع أنّ الوطن صلبٌ بما يكفي ليتحمّل المعاناة، ويسهر على حماية حقوق مواطنيه وآمالهم، والدفاع عنها بشراسة، لكنّ توقعات هذا المواطن تصطدم بواقع معاكس تمامًا للذي يتمنّاه، لذلك تَعتبر الكاتبةُ الوطن كذبة إذ تقول واصفة موت الرّشيد: «مات مبتسمًا كمن يتحرّر أخيرا من كذبة الوطن والنّاس...!»[14]. وفي ظلّ هذه المفارقة إذًا تتسبّب الهوّة الموجودة بين الواقع المعاش والواقع المأمول في عجز المواطن عن التّواصل مع وطنه، ما يفتح المجال واسعًا لاكتساح الاغتراب ليوميات هذا المواطن. وبهذا يبسط الاغتراب هيمنته على الرّواية؛ إذ تُعاني شخصيّاتها من الشُّعور بالعجز والعبثيّة والعزلة الاجتماعيّة والغربة عن الذّات. ويُمكن أن نمثّل لطريقة اشتغال البنية الدّلاليّة للعنوان بالشّكل الآتي:

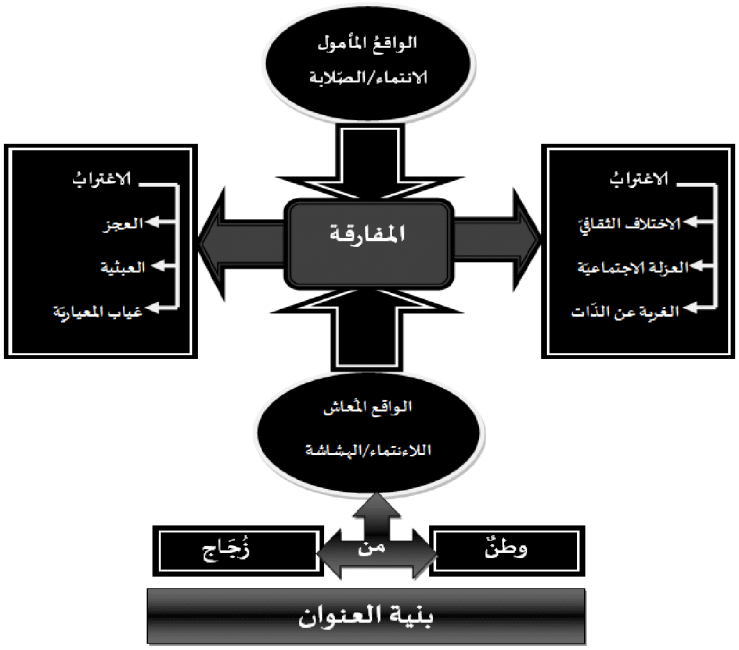

فكّ شفرة العنوان باعتباره نظاما سيميائيّا

بناءً على ذلك، يكشف تحليلنا لبنية العنوان باعتباره رسالة مشفّرة أنّ الكاتبة نقلت ظاهرة الاغتراب من الحياة اليوميّة للمواطن الجزائريّ إلى تشكيل بنية خطاب العنوان، الأمر الذي أنتج اغترابًا لغويّا من خلال توظيف اللّغة من أجل نقل ما يحمله الاغتراب من أبعاد منها: العجز، العبثيّة، العزلة الاجتماعيّة، الغربة عن الذّات. وبهذا يتحوّل العنوان إلى بنية لغويّة مشفّرة ذات بُعد دلاليّ مُرتبطٍ بشعور المواطن بالاغتراب داخل وطنه، وبُعد آخر جماليّ يرتبط أساسًا بالاستعمال الخاص للّغة في خطاب العنوان من أجل إغراء القارئ لاستكشاف العمل الرّوائيّ. انطلاقًا من ذلك، مثّل خطاب العنوان خيارًا استراتيجيّا للكاتبة، سعت من خلاله إلى إقحام القارئ في عالم روايتها المبنيّة على المفارقة التي يعيشها الإنسان في وطنه إذ «تُسجّل الرّواية انكسار الأنا في وطن يُضيّق الخناق على المواطن إلى أن يُجرّده من إنسانيّته»[15]. لقد كشفت البنية الدّلاليّة للعنوان أنّ مفارقات الواقع المعاصر هي منبع شعور المواطن بالاغتراب بأبعاده المختلفة؛ إذ أصبح المواطن كثيرا ما يشعر بالانفصال عن واقعه نظرًا لعجزه عن تحقيق طموحاته وأهدافه في وطنه.

2.2.عنفُ اللُّغة في رواية "وطن من زجاج" لياسمينة صالح:

تسعى "ياسمينة صالح" في رواية "وطن من زجاج" إلى التّمرّد على الاستعمالات الجاهزة للُّغة في محاولة لكسر حاجز المألوف في الكتابة الرّوائيّة، معلنةً ثورة لغويّة على الرّتابة في الكتابة الإبداعية، وعلى الواقع المأزوم في الوقت نفسه؛ ذلك أنّ التّمرّد على القوالب الإبداعيّة الجاهزة يُمثّل، في واقع الأمر، شكلاً من أشكال رفض الواقع، لذلك يكون لثورة الكاتب الرّوائيّ المعاصر على الواقع انعكاس مباشر على إنتاجه الرّوائيّ. والحقُّ أنّ مظاهر الثّورة على القوالب اللّغويّة الجاهزة ميّزت تجارب روائيّة مختلفة لكتّاب جزائريين عبّروا عن رفضهم للواقع المعاصر خاصّة في فترة التّسعينات، لكنّ

المثير للاهتمام في رواية "ياسمينة صالح" هي أنّها استلهمتْ استعمالها الخاصّ للّغة في عملها الرّوائيّ من وحي الواقع الذي ترفضه رفضًا مطلقا، ليس حبًّا فيه، بل لأنّ ذلك الواقع لا يفهم سوى لغةٍ وحيدة؛ إنّها لغة العنف. بناءً على ذلك، جاءت لغة الرّواية مُثقلة بمعاني العنف من خلال استعمال مفردات عنيفة تتّسم غالبا بالسّوداويّة والنّظرة المتشائمة للحياة؛ إذ نقف في الرّواية على تكرار كلمة "الموت" بأشكال مختلفة في مواضع كثيرة جدّا في الرّواية منها: «لقد مات في اشتباكات حين كان يطارد جماعة مسلّحة...»[16]، «مات الرّشيد. دفنّاه أمس مع زميلين له. مات مبتسمًا...»[17]، «حتى الموت لا يحقّ لهم أن يموتوا دون أن يكتب الحارس العام للبلديّة تقريرًا عن الميّت...»[18]، «لم يكن الموت شكلا من أشكال العقاب فقط، بل كان وسيلة لوشم الميّت بالعار إلى الأبد...»[19]. من هنا، يتربّص العنف بالقارئ بين دهاليز الرّواية مقنّعا بعباءة الموت؛ فالعنف في الرّواية هو «ذلك الواقع المزري الكريه، هو الظلّ الدّاكن المدمّـــر الذي يخـترق أعمـــاق النّفوس، ويهشِم المشاعر الرقيقة لتتشكّل عند كلّ إنسان مرهف الإحساس نوبات من الألم، ومن القلق ومن الكآبة»[20].

إنّ أفق السَّوداوية يتّسع كلّما سافرنا أعمق في الدهاليز المظلمة للرّواية؛ إذ تتّجه الكاتبة تدريجيّا إلى استعمال كلماتٍ أشدّ عنفًا نحو كلمة "القتل" التي تتكرّر بتفاوتٍ في مختلف صفحات الرّواية : «سوء الطّالع الذي يتربّص بهم في مسيرة البحث عن وطن لا يسكنه القتلة ولا الطواغيت...»[21]، «الخيانة تعني في الأخير الحياد في وطن يقتله المحتلّون...»[22]، «أقتل الوقت...»[23]. وبهذا صوَّرت الكاتبة من خلال العنف في اللّغة ملامح مجتمعٍ يعيش محنةٍ حقيقيّة، «المحنة التي كابدها أبطال المدوّنة الرّوائية، لتعلن عن انكسار الرّوح وانهزامها بضياع الوطن الذي سرق اللّصوص قلبه».[24]

ولم تكتف الكاتبة باستعمال كلماتٍ مؤلمة مُستمدّة من طبيعة الواقع المعاش، بل اتّجهت إلى تعزيز الطبيعة العنيفة للغتها في الرّواية من خلال استعمال لغة الشّتم والإهانة في مواضع عديدة من الرّواية منها: «ليأتي يوم القصاص وليجد متعته في قول تلك الجملة التي عاش لقولها: حكمت عليك الجبهة بالموت يا كلب! »[25]،«لأنّك عميل خائن...لأنّك بعت إخوانك لفرنسا! »[26]،«بصق عليه ومضى. »[27]، «أنت لست جزائريّا يا كلب ! أنت خائن وقوّاد ! »[28].

بناءً على ذلك، انعكست مظاهر العنف في الواقع المعاش للكاتبة على عمليّة التّشكيل اللّغويّ في رواية "وطن من زجاج" لتكون اللّغة بذلك مستودعًا لانكسارات المواطن وأحلامه المؤجّلة ومعاناته الدّائمة، ومأساته داخل وطنه، وبهـــذا تمكّنت الكاتبة من تحويـــل اللّغة إلى مـــرآة للواقع، من أجل التّعبير عن رفضها له من خلال التّمرّد على القوالب اللّغويّة الجاهزة عن طريق توظيف العنف في لغة الكتابة الرّوائيّة. والحقُّ أنَّ الكاتبة انتشلت نصّها من براثن المألوف دون أن تجعل من استعمالها للعنف يصل حدّ الابتذال، إذ طوّعت الكاتبة اللّغة العنيفة لتخضع لقوانين الإبداع الفنّي موظفةً العنف في خدمة الجمال. إنّ هذه المفارقة جعلت الاستعمال الخاصّ للّغة في الرّواية يؤدّي إلى بروز

الوظيفة الشّعريّة التي حوّلت النّص من رسالة لفظيّة إلى أثر فنّي[29]، واهبةً إيّاهُ كينونته الجماليّة، وبهذا يتحوّل عنف اللّغة إلى استراتيجية أساسيّة في عمليّة التّأسيس الخطابيّ للرّواية.

3.2. المونولوج في رواية "وطن من زجاج" لياسمينة صالح:

يُمثّل المونولوج حوارا داخليًّا في النّص الرّوائيّ من شأنه «إبطاء زمن السّرد نتيجة لحالة التّأمّل النّفسيّ، وتوسيع زمن الخطاب»[30]، فتتوقّف «حركة الزّمن الخارجيّ ليطفو العالم الدّاخليُّ على سطح السّرد الحاضر»[31]. من هنا، يُمثّل المونولوج لحظة غوصٍ في أعماق الشّخصيّة الرّوائيّة من أجل الكشف عن المكنونات النّفسيّة الدّفينة لها، إنّه يمثّل صوت الذّات حين تُخاطب نفسها معبّرة عن حقيقة ما تشعر به اتجاه الآخرين والعالم. انطلاقًا من ذلك، استعملت الكاتبة المونولوج لشحن نصّها الرّوائيّ بحمولات اغترابيّة؛ فالرّاوي مباشرة في أوّل صفحة من صفحات الرّواية يُعلن صراحةً عن عجزه عن التّواصل مع ذاته ومحيطه معبّرا عن حالة التّذمر التي يشعر بها اتجاه وطن المتناقضات الذي يعيش فيه؛ إذ يتساءل مخاطبًا نفسه: «كيف يُمكن تفسير هذه العبثيّة المطلقة..كيف يُمكن تفسير هذا الهباء؟»[32].

لقد عبّر الرّواي في مطلع الرّواية من خلال المونولوج عن اغترابه من خلال شعوره بالعبثيّة التي تُمثّل إحدى الأبعاد السّتة للاغتراب المعاصر؛ ذلك أنّ الإنســان إن طــال به التّهميش في وطنه، يغمره الشُّعور باللّامعنى، فلا يجد تفسيرًا منطقيًّا لكلّ ما يدور حوله من أحداث، فيرى «أنّ الحياة لا معنى لها، لكونها تسير وفق منطق غير مفهوم وغير معقول، وبالتّالي يفقد واقعيّته ويحيا باللّامبالاة»[33]. من هنا، يُصبح المونولوج في النّص الرّوائيّ وسيلة لبثّ المشاعر الاغترابيّة في الجوّ العامّ للرّواية؛ إذ تتحرّر شخصيّات الرّواية من وطأة الواقع عندما تُخاطب ذواتها محاولة التّعبير عن رفضها لهذا الواقع الذي أصبح لا يُطاق، مثلما يبرز من خلال قول الرّواي: «متى كنّا بخير حقًّا؟ من يتذكر الخير الذي كنّا فيه أو عليه؟ لا أحد..ولا حتّى أولئك الذين يسوقون "الخير" في جمل يربطونها بالأمس.. كما لو أنّ الأمس أفضل من هذا الجحيم الذي نحن فيه»[34].

والواقع أنّنا نُلاحظ حرص الكاتبة على تكرار الاستفهام في خطاب المونولوج، من أجل إبراز حالة الارتباك والشّك التي تُعاني منها شخصيّات الرّواية التي تُحاصرها الدّهشة، وعلامات الاستفهام من كلّ جانب؛ إذ تجد الشّخصيّات نفسها عاجزة عن قراءة أبجديّة الواقع والتّأقلم معه، ما يجعلها لا تنفك تطرحُ الأسئلة التي تُبرز قلقها الدّائم، وخوفها من الحاضر المؤلم، ومن المستقبل المجهول، فتختفي ملامح الوطن تحت ركام التّوقعات التي انقضت فوق رؤوس المواطنين الذين يتساءلون: «ما الوطن أمام هذا الشّتات الرّهيب؟»[35]. إنّ شتات الوطن لا ينعكس إلاّ من خلال شعور الذّات بشتاتها الدّاخلي، عندما تعجز عن عقد علاقات وديّة مع المحيط، فتقع في براثن الاغتراب. من هنا، يقوم المونولوج في النّص الرّوائيّ باستفزاز القارئ عبر تركيزه على طرح الأسئلة دون تقديم الأجوبة أو

الحقائق المطلقة، ما يجعل الرّواية فضاءً مفتوحًا على الأسئلة التي تقضُّ مضجع الإنسان المعاصر، الأمر الذي يستدرج القارئ للتّفاعل مع النّص الرّوائيّ من خلال المشاركة الفعّالة في إنتاج الدّلالة عن طريق طـــرح أسئلةٍ أخـــرى أو تقديم أجوبـة لأسئلة الرّواية، موظفًا خلفيّته الثّقافيّة والفكريّة من أجـل فـكّ الشّفـرات المدسوسة في لغـة الرّواية ذلك أنّ «النّصّ الأدبيّ وجود عـائم؛ فمبدعه يُطلقه في فضاء اللّغـة سابـحًا فيهـا إلـى أن يتناولـه القـارئ، ويأخذ في تقرير حقيقته»[36]. وبهذا يكتسب القارئ دوره المركزيَّ في تحديد البنية الدّلاليّة للنّص من خلال فعل القراءة.

خاتمة:

نخلص من خلال دراستنا إلى ما يلي:

1. لم يعد الاغتراب اللّغويّ في الرّواية الجزائريّة مرتبطًا بمعاني الغربة اللّغويّة، بل يمثّل أحد أشكال ظاهرة الاغتراب التي تَعني شُعور الإنسان المعاصر بالعجز واللّاقدرة على التّواصل مع ذاته وواقعه.
2. يبرز الاغتراب اللّغويّ في رواية "وطن من زجاج" لياسمينة صالح من خلال ثلاثة تجلّيات مختلفة هي: الاشتغال على فكرة المفارقة بين الواقع المعاش والواقع المأمول، التّمرّد على القوالب اللّغويّة الجاهزة من خلال انعكاس مظاهر العنف في الواقع على لغة الكتابة الرّوائيّة، استعمال المونولوج من أجل إبراز اغتراب الشّخصيّة الرّوائيّة عن طريق الكشف عن مكنوناتها النّفسيّة الدّفينة.
3. لقد مثّلت تجلّيات الاغتراب اللّغويّ منبع شعريّة الرّواية؛ إذ عملت على تشكيل بنيتها الدّلاليّة من خلال إعطائها هويّة اغترابيّة، كما ساهمت في الوقت نفسه في تحويل النّص الرّوائيّ من رسالة لفظيّة إلى مُنتج فنّيّ إبداعيّ.

الهوامش:

[1] محمود رجب، (1988م)، الاغتراب سيرة مصطلح، دار المعارف، القاهرة_ مصر، ص13.

[2] يُنظر، حليم بركات، (2006م)، الاغتراب في الثّقافة العربيّة: متاهات الإنسان بين الحلم والواقع، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت_ لبنان، ص 37.

[3] Richard Schacht, (1971), Alienation, ANCHOR BOOKS, USA, , P1.

[4] Bertell Ollman,(1976), Alienation: Marx's Conception of Man in a Capitalist Society, Cambridge University Press, USA, P131.

[5] يُنظر، حليم بركات، الاغتراب في الثّقافة العربيّة، ص61.

[6] AMMAR KOROGHLI, (2005), Malek Haddad: «la langue française est mon exil», https://www.elwatan.com/archives/arts-et-lettres-archives/malek-haddad-la-langue-francaise-est-mon-exil-09-06-2005 (consulté le 27/5/2020).

[7] Marie-France Rouart, (2008), Les structures de l'aliénation, Publibook, France, P13.

[8] نصر حامد أبو زيد، (2005م)، إشكاليات القراءة وآليات التّأويل، المركز الثّقافي العربيّ، الدار البيضاء_ بيروت، المغرب_ لبنان ، ص32.

[9]يُنظر، حفناوي بعلي،(2015م)، تحوّلات الخطاب الرّوائي الجزائري: آفاق التّجديد ومتاهات التّجريب، دار اليازوري، عمان_ الأردن، ص 472.

[10]تزفيتان طودوروف،(1990م)، الشّعريّة، تر: شكري المبخوت ورجاء بن سلامة، دار توبقال للنّشر، الدار البيضاء_المغرب، ص21.

[11]Gérard Genette,(1987), Seuils, édition du Seuil, Paris, P7_8.

[12]جميل حمداوي،(1997م)، السّيميوطيقا والعنونة، مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلّد:25، العدد:3، ص96.

[13] كامل عويد العامري،(2013م)، معجم النّقد الأدبي، دار المأمون، بغداد_ العراق، ص314.

[14]ياسمينة صالح،(2006م)، وطن من زجاج، الدار العربيّة للعلوم_منشورات الاختلاف، بيروت _ الجزائر، لبنان _الجزائر، ص7.

[15]فريدة إبراهيم بن موسى،(2012م)، زمن المحنة في سرد الكاتبة الجزائرية: دراسة نقدية، دار غيداء، عمان_ الأردن، ص236.

[16]الرّواية، ص7.

[17]المصدر نفسه والصّفحة.

[18]المصدر نفسه، ص10.

[19]المصدر نفسه،ص17.

[20]ندى ذبيان،(2013م)، العنف المقنع، دار مؤسسة رسلان، دمشق_سورية، ص6.

[21]الرّواية، ص5.

[22]المصدر نفسه، ص16.

[23]المصدر نفسه، ص165.

[24]فريدة إبراهيم بن موسى، زمن المحنة في سرد الكاتبة الجزائرية، ص237.

[25]الرّواية، ص16.

[26]المصدر نفسه، ص17.

[27]المصدر نفسه، ص18.

[28]المصدر نفسه، ص20.

[29]يُنظر، رومان ياكبسون،(1988م)، قضايا الشّعريّة، تر: محمد الولي ومبارك حنوز، دار توبقال للنّشر، الدار البيضاء_المغرب،ص24.

[30] مها حسن القصراوي،(2004م)، الزّمن في الرواية العربية، المؤسّسة العربية للدراسات والنّشر، بيروت_ لبنان، ص245.

[31]المرجع نفسه والصّفحة.

[32]الرّواية، ص7.

[33]عبد اللّطيف محمد خليفة، (2003م)، دراسات في سيكولوجيّة الاغتراب، درا غريب، القاهرة_ مصر، ص37.

[34]الرّواية، ص9.

[35]المصدر نفسه، ص85.

[36]عبد الله محمد الغذامي،(1998م)، الخطيئة والتّكفير: من البنيوية إلى التّشريحيّة: قراءة نقديّة لنموذج معاصر، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، القاهرة_ مصر، ص28.